نظـام

كره الحكماء فى كل وقت وفى كل مكان وفى كل جيل تجاوز الحد ، وضاق الحكام فى كل وقت وفى كل مكان وفى كل جيل بالغلو والإسراف وأحبوا دائما أن يكون القصد والاعتدال قوام مايأتى الناس من عمل ، وماينهجون من نهج فى الحياة . ويخيل إلينا أن علماء الدين هم أحق الناس برعاية القصد والحرص على الاعتدال ، وهم أحق الناس بتجنب الإفراط وتجنب التفريط معا .

فإذا كان الإسراف عيبا فالتقصير عيب آخر . وعلماء الدين أجدر الناس أن يتجنبوا كل عيب وأن يتجنبوا بنوع خاص عيب الإفراط وعيب التفريط لأنهما مصدر كثير من الرذائل وسبيل كثير من الآثام . وقد قصر علماء الدين فى ذات الدين تقصيرا شديدا آخذهم به الناس ولاموهم عليه . فوقفوا صامتين جامدين من أمور ماكان ينبغى لهم فيها الصمت ولا الجمود . وتركوا غيرهم من الذين لم يتخذوا حماية الدين صناعة ولا الذود عن الدين مهنة ، ولم يتقاضوا على ذلك من الدولة أجرا ، ولم ينالوا فى ذلك من الدولة والناس ضروب التشريف والتعظيم ، تركوا غيرهم من هؤلاء الناس يعملون ويقولون ، ويدفعون ويذودون ، ومهما يقل القائلون فإن بلاء غير الأزهريين فى حماية الدين والذود عنه أعظم ألف مرة ومرة فى هذه الأعوام الأخيرة من بلاء الأزهريين .

ولم ينس الناس بعد موقف الأزهريين من المؤتمر الاسلامى الذى عقد فى بيت المقدس ، ولا موقفهم من هذه الأحداث التى ألمت بالمسلمين فى بلاد العرب من مراكش إلى طرابلس ففتنت جماعة منهم عن دينهم ، وآذت جماعة منهم فى أموالهم وأنفسهم وحرماتهم . ولا موقفهم من مقتل الشهيد(١) الطرابلسى ، ولا من مرض الإمام السنوسى ووفاته وصلاة الغائب عليه .

لم ينس الناس مواقف الشيوخ الأزهريين من هذه الأحداث كلها ، ولا من هذا

كوكب الشرق فى ٢٧ - ٧ - ١٩٣٣

(١) المراد عمر المختار

الحدث الأخير الذى أصاب المسلمين فى كرامتهم ودينهم كما أصاب المصريين جميعا فى كرامتهم وديناتهم بما كان من اعتداء المبشرين الظاهر والخفى على الفتيان والفتيات ، والبائسين والضعفاء . فقد صمت شيوخ الأزهر فأطالوا الصمت ، وهدأ شيوخ الأزهر فأطالوا الهدوء ، واضطربت نفوس المسلمين والمصريين من حولهم أشد الاضطراب ونفوسهم هادئة ، وخفقت قلوب المسلمين والمصريين أشد الخفقان وقلوبهم مطمئنة مستقرة فى الصدور . وضج الناس من صمت الشيوخ ، وضاق الناس من صمت الشيوخ ، وضاق الناس بجمود الشيوخ ، وألح الناس فى الصحف المصرية الإسلامية على الشيوخ فى أن يغضبوا للإسلام ويظهروا شيئا من الاستعداد للذود عنه والقيام عليه . وظل الشيوخ صامتين ، هادئين حتى نهض غيرهم فقال ونهض غيرهم فعمل . ثم أذن الله للشيوخ فاجتمعوا وقرروا ، ثم قالوا ومضوا يقولون ، وعملوا ومضوا يعملون ، ولم نتردد نحن حين أخذ الشيوخ فى القول والعمل فى أن نعرف لهم ذلك ونثنى عليهم ونشجعهم على المضى فيه ، وندعو الناس إلى أن يثقوا بهم ويطمئنوا إليهم ويغتبطوا بأنهم قد أخذوا يقومون بما هيئوا للقيام به . فكان صمت الشيوخ العميق ، وسكون الشيوخ الطويل تورطا فى التقصير الذى يعاب به علماء الدين بنوع خاص إن آثروه وقصدوا إليه فى غير تورط ، ولا اضطرار ، ولكنا مع ذلك نسينا للشيوخ هذا التقصير وألححنا على الناس فى نسيانه وقلنا إن الحركة المتأخرة خير من السكون الدائم والجمود المقيم .

ولكن الشيوخ فيما يظهر محتاجون إلى شىء من التجربة حين يقصدون إلى الأعمال العامة ، أو يندفعون إليها لأنهم لم يجربوا هذه الأعمال كما ينبغى ولم يأخذوا بحظهم من ممارستها . فهم مضطرون بحكم هذا الإهمال وهذا البعد من مشاركة الناس فى حياتهم العامة إلى أن يتورطوا فى أحد العيبين : فإن سكتوا أغرقوا فى السكون ، وإن عملوا أسرفوا فى العمل ، واندفعوا فيه إلى غير حد ، أو إلى حد كان يحسن ألا يبلغوه . فالذى كان يطلبه المسلمون من الشيخ الأكبر وأصحابه لم يكن عسيرا ، ولاشاقا ولامعقدا . إنما كانوا يطلبون إليهم أن يغضبوا لدينهم ويأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ويوجهوا أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر إلى الأمة والحكومة معا فيطلبوا — وقد فعلوا — إلى الأمة أن تفطن لكيد المبشرين ، وتصرف صبيانها وضعفاءها عن معاهدهم ، وتنشىء مايغنى عن هذه المعاهد الخطرة . ويطلبوا إلى الحكومة — ويقال إنهم قد فعلوا — أن تنهض بواجبها على أحسن وجه فتكف المعتدى عن عدوانه ، وتحمى المصرى من هذا العدوان . وتتخذ إلى ذلك سبلها السياسية والإدارية والمالية والقضائية فتنشىء الملاجىء وتغلق معاهد العدوان وتنفى الآثمين من الأرض .

ولم يكن المسلمون يطلبون إلى شيوخ الأزهر أكثر من أن يدعوا إلى ذلك ويلحوا فى الدعاء حتى تستجيب لهم الأمة وتستجيب لهم الحكومة ولكن شيوخ الأزهر اندفعوا فيما يظهر إلى أبعد مما كان يطلب منهم ، بل إلى أكثر وأثقل مما يطيقون حتى وإن أيدتهم الوزارة وشدت أزرهم وحمت أظهرهم ، واحتكرت لهم وحدهم فى غير موافقة للدين أمر حماية الدين ، والدعاء إليه

فهاهم أولاء ينظمون الجماعات ويؤلفون اللجان الخاصة والعامة ، ويحاولون أن يبثوا لجانا فرعية فى أقطار مصر ، ويجعلوا أنفسهم لاحماة للدين ، وذادة عنه فحسب ، بل جباة للمال ، ومدبرين له أيضا . وهذا نظامهم الذى أذاعوه يدل دلالة واضحة على أنهم لايكتفون بالدعاء إلى الله ، والهداية إلى سبيل الله بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة ، وإنما يريدون أن يكونوا قوة عاملة منظمة أصلها فى الأزهر وفرعها فى أطراف الأرض لها مجالس ولجان وخزانة وخزان ، ولها أسرار وأمناء أسرار ، ولها محفوظات وأمناء على هذه المحفوظات ، وفيها آمر ومأمور ، وفيها مقترحون ومنفذون إلى آخر هذا النظام المعقد الذى نشرته الصحف منذ أمس والذى هو أشبه بنظم الجماعات والأحزاب منه بما تحتمله الهيئة الموقرة من رجال الدين .

نعم إن الهيئة حظرت على نفسها العمل فى السياسة أو التعرض لها ، ولكن يقال — وكم نحب أن يكذب هذا الذى يقال — إن الهيئة لم تستطع أن تخلص من السياسة أو مما يشبه السياسة ، فقد اجتمعت واجتمعت ولم تدع بعض أعضائها إلى شهود هذه الاجتماعات والاشتراك فيها . والناس يتأولون هذا الإهمال ويذهبون فيه المذاهب . ويقال — ولا سبيل إلى تكذيب هذا الذى يقال — إن الهيئة قد قبلت من الحكومة هذا الاحتكار الذى وقف عليها وحدها ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قصة المبشرين . وكان الحق عليها للدين ولنفسها ألا تقبل هذا الاحتكار المعيب ، فالأمر بالمعروف حق المسلمين جميعا ، وواجب على المسلمين جميعا . وقبول الهيئة هذا الاحتكار ممالأة للحكومة عما لم يكن ينبغى أن تمالئها عليه أو هو على كل حال إذعان للحكومة فيما لم يكن ينبغى أن تذعن لها فيه . وسواء أكان الأمر ممالأة أو إذعانا فهو مجاراة للسياسة وتورط فيها . ويقال — ونظام الهيئة هو الذى يقول ذلك — إن الهيئة قد اتخذت لنفسها لجنة تنفيذية تتألف من أعضاء قليلين لا يتجاوزون الخمسة ، فيهم الشيخ الأكبر ووكيله ومفتى الديار . وجعلت لهذه اللجنة سلطانا طويلا ، عريضا عميقا ، لايفلت منه شيء ولايشذ عنه شيء وليس لشيء عليه سبيل . فلجنة العلماء لاتستطيع أن

تعمل ولا أن تقول ولا أن تنشر إلا إذا أذنت لها لجنة الخمسة . وكذلك لجنة المال وكل أعمال الهيئة مهما يكن موضوعها وأغراضها رهينة بلجنة الخمسة . فلجنة الخمسة هذه مسيطرة على رجال الدين جميعا فيما يعملون ويقولون للدعوة إلى سبيل الله . وهذا أيضا نوع من الاحتكار غريب ، وضرب من الاستئثار يذكر بنظم الأحزاب التى تريد أن تكون قوية واسعة السلطان ، بعيدة الأثر فى الحياة .

كل هذا كثير ، وكل هذا معقد ، وكل هذا يدعو إلى التفكير فى أن الهيئة تسير فى طريق قد لايحبها المسلمون ، لأنها لاتلائم طبيعة الحياة الإسلامية ، ولأنها أقرب إلى تنظيم حزب للأكليروس لايحتمله الإسلام ، لأنه ينافى طبيعته السهلة اليسيرة .

ولعل الهيئة تحسن الظن بنفسها وبالناس وتحسن النصح لنفسها وللناس إن عدلت عن كل هذا التعقيد الذى لاحاجة إليه والذى لايحتمل البقاء الطويل ، ولايستطيع أن يثبت لتغيرات الأيام والظروف فاكتفت بالدعوة إلى الخير توجهها إلى الأمة والحكومة ، وتلح فيها ، وتركت العمل للقادرين عليه . فهى إذا جمعت من أموال العلماء مقدارا ضخما أو نحيفا خليقة أن تدفعه إلى الحكومة أو إلى جماعة من جماعات الخير لتدبره وتنفق منه فى الوجوه التى جمع لها ، وهى غنية عن تنظيم اللجان وبثها فى القرى والمدن والأقاليم . فهذا نوع من النشاط غريب بالقياس إلى هيئة الشيوخ ، لايستطيع الناس أن يفهموه ولا أن يألفوه ، ولا أن يطمئنوا إليه . ونحب مخلصين أن يطمئن الناس إلى مايصدر عن رجال الدين ، إنالتقصير عيب ،والإسراف عيب . وقد تورطت الهيئة فى العيبين فيما يظهر . فهل لها أن تخرج من الإسراف كما خرجت من التقصير ، وأن تؤثر ما يأمر الله به من القصد والاعتدال ؟